ربما طبيب...

أو مريض

عبد الناصر سيو

ربما طبيبٌ أو مريض ..

عبد الناصر سيو

لنكن صريحين منذ البداية ... إن كنت تبحث عن المتعة فلا تهدر وقتك هنا .

هذه الرواية خالية تماماً من المتعة... وكلامي هذا ليس لجذبك لقراءتها .

فقط مع صخب الوحدة....

وضجيج الهدوء ..

تكتشف أن العزلة هي الملاذ الأزلي والمهرب الوحيد

عبد الناصر سيو

إلى الشخص الذي أود أن أعرف عنه كل شيء... إلا أنني لا أعرف عنه أي شيء ....

إهداء لنفسي غداً...

أو بعد غد ...

أو حتى ما بعد ذلك .... إلى تلك الشخصية التي سأكون عليها في قادم الأيام والتي ربما ستزدري شخصيتي الحالية ... آمل ألا تنسي ما أنا عليه اليوم ... وآمل أن تحبيني كما أحب نفسي القديمة .

الشاب هوموِيس .

ها هي الساعات تمر... ها هو الظلام يخيم، وها هو ينجلي من جديد ...

لا زلت حبيس غرفتي التي احتضنها الظلام، وانا بدوري ها أنا احتضن وسادتي وأستدير للجهة الأخرى كلما شعرت بضيقٍ من وجهتي السابقة .

لقد حفظت معالم الجدران جيداً، لم تكن خير ما أفرغ عنده أطنان الكلمات العالقة بجوفي لكنها كانت خير مستمعٍ على الأقل، فما كنت أخشى قط أن اشاركها ما قد كان ليجعلني لا أنام ندماً إذا ما أعطيته لذوي روح .

ها هو أيضاً هاتفي يرن، لكنني لا أود سماع صوته، لقد تمنيت لو كنت أسمعه في وقت غير هذا ... أو لسببٍ غير الذي سأسمعه حين أجيب... هكذا الحياة، كثيراً ما تعطينا ما لا نرغب وتتجاهلنا بما نرغب... ولا زلت لا أعرف السبب، وربما أخشى أن أعرف.

لازلت عاجزاً عن تخطيها وعبور ذلك الجسر نحو الضفة الأخرى...

أعلم أنني مخطئ... لكن هل حقاً يستحق خطأي أن أدفع كل ما ملكته ثمناً له ؟

كنا وقد نشب بيننا خلافٌ كان يتكرر كثيراً، إلا أنني في هذه المرة لم أستطع تناول كل تلك المرارة والابتسام بعد تلك النكهة ... للمرة الأولى قررت الكلام، قررت مجابهة أفعالها ودلالها، قررت إنقاذ نفسي ربما، كان الثمن علاقتنا ... خليط المشاعر الذي كان ينتابني يقول أنني لا زلت

أحبك... لكنني أحب نفسي أكثر، نفسي التي سببتِ لها المعاناة، أنا أُفضّلها عليكِ ... وهذا ما دفعني لعدم الصمت عنك .

بحلوها ومرها، لقد مرّت تلك الأيام التي صنعت ما أنا عليه اليوم، لقد أصبحت شخصاً أفضل مع نفسي في النهاية وكان الفضل لكِ، ليس كل الفضل، لكن بعضه، الجزء الذي جعلني ناضجاً وقوياً حينما أفلتِ يدي في منتصف الطريق، وددت فقط أن أرى الناس ومجابهتهم لمشاكلهم وحياتهم... وددت أن أرى قصصاً قد تجعلني أخجل من قصتي التي صنعت مني إنساناً بلا ملامح ... أردتِ أن أنساكِ في طيات حكايةٍ أسمعها من مريض... لكنني لم أدرك ان القصة التي ستمحي أثرك لن تكون من مريض .

رغم مرور الأيام، لازلتِ هنا... أراكِ في كل مرةٍ أحدق فيها شارداً نحو زوايا غرفتي بعد أن أقوم بإطفاء الأضواء... صوتك ما زال يطرب مسمعي بين الحين والآخر متداخلاً بين أنغام هدوء الوحدة التي التبستني، وعبقكِ لازال منتشراً في أرجاء حياتي ... لم أجد قصةً إلى الآن تنسيني إياكِ، لم أرى ما هو جديرٌ بالاهتمام أكثر منكِ حتى هذه اللحظة...

لا أعلم إن كنتِ تكرهينني أو لا، ربما مازلت تملكين من الود ما تملكينه نحوي لكنه الكبرياء، لكن هل حقاً في الحب كبرياء ؟

لا أعلم... لكنني متجردٌ منه، ولأنني كذلك فلن أبادر... لأنها رغبتي الحقيقية...

لن اقول أنني أكرهكِ لكنني لست ضعيفاً لأحب من لا يبادلني الحب...

الساعة التاسعة إلا دقيقتين... أمسك بقبضة باب عيادتي بيدي اليمنى وأرفع اليسرى محدقاً نحو الساعة التي أرتديها حتى تشير عقاربها إلى تمام التاسعة فأدخل، هذا هو نظامي الغريب الذي جعلني أقف مرةً أمام باب مكتبي لمدة نصف ساعةٍ أنتظر أن يسمح ذلك العقرب لي بالدخول إلى مكتبي ... كعادتي أخرج علبة السجائر وآخذ واحدةً ثم أجلس بقرب النافذة محدقاً نحو الشارع المزدحم تحت العيادة... إلى الناس في الطرق... وإلى ذكرياتنا التي تسير امامي في كل مرةٍ أحصل على رشفةٍ من كوب قهوتي بينما أصنع سحابةً دخانيةً تجوب فوق رأسي .

أسمع طرقات الباب، وبعد الثانية الرابعة، يُفتح الباب كما المعتاد ...

_صباح الخير أيها الطبيب

_أهلاً لينا، صباح الخير

_هل أسمح للمريض بأن يدخل ؟

_أدخليه في ظرف عشرين ثانية ...

أطفأت سيجارتي وأغلقت النافذة ثم توجهت نحو الكرسي الأسود الخاص بي منتظراً انقضاء تلك العشرين ثانية ودخول المريض الذي سأقدم له العلاج ... وكم اتمنى لو أسرق علاجي منه دون أن يدري ...

دخل شابٌ في مقتبل العمر، يرتدي بنطالاً واسعاً وسترةً عسلية اللون، لم يكن شعره مصففاً لكن مظهره كان لائقاً رغم ذلك، دخل عليّ دون أن يقوم بإرخاء حاجبيه... أعرف هذه العادة جيداً، ربما لو لم أعرفها لظننت أنه قادمٌ لمهاجمتي...

على عكس اغلب المرضى الذين قابلتهم، كانت عيناه مليئةً بالثقة، لم يكن يبدو عليه أنه مريضً، لكنه كان يبدو كذلك أيضاً ...

_صباح الخير أيها الطبيب ...

_صباح الخير، بإمكانك الجلوس

_شكراً

جلس هومويس وأخذ ينظر إلي وأنا أبادله النظر، أخذت زمام المبادرة وقلت :

اسمك هومويس أليس كذلك ؟

_نعم يا سيدي

قلت مبتسماً بينما اعبث بالقلم بين أصابعي : يا لها من مصادفة... نحن نمتلك الاسم نفسه ...

أجابني مبتسماً : لمن دواع سروري أن أشاركك الاسم ذاته...

_لماذا ؟

نظر إلي باستغراب وكأنه يطلب أن أكرر سؤالي ...

_لماذا هو من دواع سرورك أن نمتلك الاسم ذاته ؟

لم يزح عيناه من عيناي لفترةٍ ثم قال : في الواقع هو ليس كذلك فأنا لا أعرفك، لكنني أعتقد أنه لا ضير من كذبةٍ تحمل النفع للطرفين

_وأين ذلك النفع ؟

_كذبتي تلك ستجعلك تشعر بنوعٍ من السعادة والرضا وأما أنا فسأنهي موضوعاً بأقل كميةٍ من الكلام

_وهل تدفع ثمن تلك الكلمات حتى تخشى إسرافها ؟

_بالطبع

قلت مبتسماً: كم ثمنها ؟

_ندمٌ بحجم إسرافي لها ...

_لكن... إلى أي قدرٍ ستستطيع الوصول محتفظاً بخزائن كلماتك ؟

_لن أحتفظ بها... لدي من الجدران في غرفتي ما يكفي لتستمع لي ...

أخذت أضحك بينما هو يحدق لي دون أن ينزاح نظره عني لحظة، لم يكن ذلك ضرورياً في الحقيقة لكنني كنت دائماً أحب أن أعرف شخصية وتفكير مريضي من خلال حديثٍ جانبيٍ اخوضه معه ... كان يبدو مختلفاً قليلاً عن سابقيه من المرضى... كان يبدو أنه مريضٌ أكثر منهم جميعاً رغم أنه معافى .

_إذاً، ما قصتك يا هومويس ؟

أخذ نفساً عميقاً ثم قال :

_لقد فقدت طمأنينتي دون أن أدرك... أدركت ذلك حينما فقدت من جعلني أمتلك مقداراً من الطمأنينة جعلني أنسى طعم فقدانها ... لكن ربما حسرتي سببها فقداني للكمية القليلة التي كنت امتلكها من الطمأنينة قبله، على الرغم من قلتها لكن لم يكن لها ثمنٌ على الأقل .

_لا نستطيع أن نلوم أحداً جرفته الحماسة وشغف التعرف على المجهول، فغالب الناس لا يدركون أن امتلاكهم للراحة والطمأنينة شيء سيندمون عليه أشد الندم إذا ما فقدوه ... لكننا هكذا، عيبنا أننا لا ندرك عدم إدراكنا

لقيمة الأشياء من حولنا حتى نخسرها، فنقع في غرامها آملين أن تعود بعد أن امتلكنا الفرصة دائماً لتقديرها بينما هي بين أيدينا .

واصل نظراته نحوي لكن هذه المرة مع ابتسامةٍ ثم قال : لقد قللت منك، لم أتوقع أن تفهم ما أرمي إليه بتلك السهولة

_لا تنتقص مني، قدرتي على التحليل ليست سيئة ...

_لقد زرت أربعة أطباء قبل مجيئي هنا، لقد توقفت معهم حينما أخبرتهم بهذه الجملة ولم يفهموا ما رميت إليه

_حسناً، انظر يا هومويس، ذلك لا يقلل منهم ومن خبرتهم كأطباء، فبالنهاية التجارب لها الفضل الأكبر للوصول إلى الإدراك، فيما سوى ذلك، ستبقى المعلومة محض كلماتٍ تفتقر للمعنى حتى يمر الإنسان بتجربتها فيدركها حقاً، أي أنني لست أفضل منهم بل ربما مررت بما يجعلني أستطيع فهمك فقط ...

_هذه نقطةٌ أخرى تُحسب لك

ابتسمت ثم فتحت علبة سجائري وأخذت واحدةً ثم قلت : ماذا إذاً، هل قررت أن تستمر معي ؟

مدّ يدّه نحوي طالباً علبة السجائر ثم قال : لا أعتقد أنني سأجد أفضل منك حتى هذه المرحلة...

_حسناً إذاً... ها أنا أسمعك

_لقد تعرضت للخذلان في نهاية طريق بذلت فيه كل جهدي ...

وببالغ الصعوبة استطعت أن اتخطى ذلك، لكن كان لذلك التخطي ثمنٌ دفعته بكل تأكيد...

علمتني الحياة أكثر مما أردت، أدركت أشياءً كنت لأكون سعيداً أكثر لو لم أدركها... لكنني تحاملت على الرغم من أنني أصبحت مدمناً على للتدخين.

جعلت مني تلك الأشياء أفقد ابتسامتي الحقيقة وأبدلها بأخرى كان كل من يراها يستطيع التمييز كم أنها مصطنعة ...

نجوت من نهاية ذلك الطريق لكنني أصبحت كثير الخوف على نفسي، لذلك أجبرت نفسي على الابتعاد عن الجميع والبقاء وحيداً، بالنسبة لي كان ألم الوحدة أقل إيلاماً من تجرع الخيبة من شخصٍ ماكنت لتصدق يوماً أنه سيخيبك ويكون هو الرسام الذي سينقش التعاسة على وجهك .

لم يطل ذلك حتى اعتدت على الأمر وأصبح جوفي خاوياً حقاً لا ينتظر من أحدٍ شيئاً معنوي ...

مع ذلك تقبلت نفسي على مضض ووعدتها بألا ألقي بها مع شخصٍ قد يجعلها تكره نفسها مجدداً .

هل هذا التعريف عن نفسي يكفي أيها الطبيب ؟

_بالطبع، هات ما عندك

_بدأت القصة حينما لم أكن أؤمن بالحب... بل كنت أسخر منه أيضاً...

_والآن ؟

_أسخر من الحماقة التي كنت فيها... لكن عدم إيماني بالحب كان نابعاً من تلك التجربة الفاشلة التي مررت بها والتي تركت تلك الخيبة فيّ .

_أي أنك اتخذت من تجربتك الشخصية مقياساً جعلك ترى أن الحب أمرٌ سخيف

_نعم، أعلم أن ذلك كان خطأً فادحاً لكنني تلقيت عقاباً قاسياً من القدر على تفكيري ذاك .

(الطبيب مبتسماً) : تابع ...

_لقد كنت بعيداً كل البعد عن تلك الأشياء، بل لم أكن أعر لها أية أهمية، وهذا ما جعلني أتساءل، لماذا سيرمي القدر بي إلى تلك الأشياء ؟

هل هو عقاب ؟ وربما كان عقاباً حقاً، لكنه كان جميلاً أيضاً...

_دعني أتدخل في هذه الجزئية... ربما إن لم يكن كلنا فالأغلبية منا يتساءل، لماذا أصابني ذلك ؟ قد يكون جواب السؤال هو دافع السؤال نفسه... نحن نسأل أنفسنا هذا السؤال لأننا نعلم أننا لا نستحق ما أصابنا،

لكن ماذا لو كان ما أصابنا قد حمانا مما هو أكبر ؟ أي أن البلاء قد يكون هو الرحمة التي لم ندرك كنهها .

_بصراحة، لا أستطيع إنكار وجهة نظرك هذه، لكن هل تؤمن بهذا حقاً ؟

_بالتأكيد، لو لم أكن كذلك لما قلته !

_مقصد كلامي... هل تسقط ذلك على حياتك ؟ لا أرى البشاشة على وجهك التي تدل أنك تطبق هذا المبدأ ...

_أنا هنا لعلاجك.... ليس لعلاج نفسي

_كيف سأثق أنك ستعالجني وأنت عاجزٌ عن فعل ذلك لنفسك ؟

_هل أخبرك أحدهم أن تثق ؟ هذا باب الغرفة أمامك، والخيار لك

أخذ يزفر ثم قال : شخصيتك مستفزة

_شكراً على الإطراء

ضحك ثم قال : أخبرتك أنها مستفزة، سأكمل ... ربما أنا حقاً مريض، لكنني لست هنا للتشافي من مرضي بل للعثور على أجوبة للأسئلة التي جعلتني مريضاً...

_سأبذل ما بوسعي لأجلك ...

_متشكرٌ لذلك ...

_على الرحب، تستطيع الإكمال

_بدأ ذلك قبل سنتين... في نهاية أيار، كنت أعمل في شركةٍ خاصةّ لإحدى أثرياء المدينة، عملت فيها ما يقارب السنتين دون أن أتعرف على أي صديق... كان البعض يحاول التقرب مني لكن ما إن يروني أصدهم عن نفسي يتوقفون وينسحبون، في أحد الأيام تم نقل مكتبي إلى غرفة أخرى، اعتدنا في تلك الشركة أن يتشارك كل غرفةٍ شخصين يفصل بينهما ستار قماشيٌ بإمكانهم نزعه لو أرادوا، دخلت لتلك الغرفة من الباب المخصص لي ثم بدأت بترتيب مكتبي الجديد، وبعد إصداري للأصوات أثناء تحريكي للأشياء فوق المكتب سمعت صوتاً أنثوياً يرحب بي من خلف الستار، قمت برد التحية بشكلٍ طبيعي ثم واصلت ترتيب مكتبي وخرجت بعد ذلك متوجهاً إلى المنزل فقد كان ذلك اليوم بمثابة العطلة بسبب تغيير مكاتب العديد من الموظفين .

في اليوم التالي وصلت للشركة ثم توجهت نحو مكتبي وفور أن فتحت الباب صادفني صوتها يقول : صباح الخير يا هومويس

_صباح الخير ....

_أماتا... اسمي أماتا

_صباح الخير يا أماتا

_شكراً، وكل عامٍ وانت بخير ...

ارتسمت على وجهي المفاجأة قبل أن أتذكر أن معلوماتي موجودةٌ في الملف القابع فوق مكتبي

_وأنتِ بخير ...

_اعتذر لفضولي واطلاعي على ملفك

_لا تقلقي، ليس شيئاً يستحق الاعتذار...

قاطعته قائلاً: لكن لماذا تبدو بارداً هكذا أثناء حديثك معها ؟

_لأنني لا أود أصلا الحديث... أخبرتك سابقاً، لم أكن آبه أبداً للفتيات، بل لم أكن آبه بكل من في الشركة

_لكن لامبالاتك لا تعني أن تعامل الناس وكأنهم مدينون إليك بالكلمات

_ليس كذلك، لكنني لا أحب التكلم وحسب

_إذاً أخبرهم بذلك بشكلٍ مباشر ...

_أخشى ... أخشى أن أؤذيهم ...

_أتفهم ذلك، لكن معاملتك تلك لهم تؤذيهم أكثر، لن يستطيع الجميع أن يفهم أنك تجاهد نفسك وتحاول بكل ما لديك لتكون طبيعياً وأن كلامك

البارد معهم هو أقصى نتائجك... بل سيرون أنك حقاً متكبر، بالنهاية، العاجز عن التذوق لن يؤذيه مهما كان الطعام حاراً .

نظر إليّ بنظرةٍ تعلوها التعب، فقلت : حينما أخبرك بشيء ما لا داعي للبحث في نفسك عن إجابة لحديثي... فقط تابع حديثك... انا هنا معلقٌ صادق، لست مضطراً للإجابة، فقط أنا مضطرٌ لذلك .

_ذلك يجعل الأمور أسهل ...

_أسمعك

_بعد ذلك، لم يكن كلانا يعرف شكل الآخر، لكنها لم تكن تكف عن الكلام

لا اخفي أنني حاولت مراراً التلميح لها بالابتعاد عني إلا أنها كانت حمقاء جداً ولم تفهم، كانت تضحك كثيراً وأيضاً تحب أن تسخر من الآخرين... ذلكما السببين كانا كفيلين لأشعر نحوها بمشاعر سلبية، رغم ذلك... واصلت الاقتراب مني .

_الى أي حد ؟

_ليس كثيراً فقد كنت أصدها دائماً وأحاول إغلاق أي حديثٍ تبدأه ...

هز الطبيب رأسه ليكمل هومويس كلامه قائلاً : كان ذلك في أحد الأيام، لا أذكر تاريخ ذلك اليوم بدقة ولكنه كان شعلة البداية...

أذكر أنه في ذلك اليوم لم يصدر أي صوتٍ من مكتبها... ربما كان قلقاً أو مجرد تفكير أن هناك شيءٌ غير منطقي، لذلك جرفني الفضول أو بمسمىً آخر القلق فناديت عليها قائلاً :

_هل أنتِ هنا يا أماتا ؟

استغرق الأمر عدة ثوانٍ قبل أن تجيب بأنها هنا ...

_هل أنتِ بخير ؟ أعلم أنه من الغريب أن أبدأ انا الحديث، لكن من الغريب أيضاً أن تكفين عن الحديث هكذا

كانت نبرتها متعبةً للغاية، كان ذلك جلياً جداً، فلقد اعتدت على نبرتها المفعمة بالسعادة... اجابتني : لا تقلق أنا بخير ...

حاولت تلطيف الأجواء قائلاً :

_أعلم أنك بخير، لو لم تكوني كذلك لما كنت هنا على ما أعتقد...

(الطبيب) : دعابتك كانت سخيفة

_أعلم ذلك...في الواقع، لم تكن تلك المرة الأولى التي أفشل فيها بتصنع القدرة على الانخراط في الأجواء والقدرة على أن أكون اجتماعياً .

ابتسم الطبيب دون رد ليكمل هومويس : لم أسمع أي جواب... سوى صوتٍ ضعيف بالكاد أستطيع سماعه، كان صوت بكائها، كان ذلك غريباً بل غريباً جداً، ماكنت لأتصور أن شخصاً مفعماً بالسعادة مثلها قد يبكي ...

لذا ودون تفكير ناديتها بشيء من الصدمة قائلاً :

_اماتا ؟! هل أنتِ بخير ؟ لم تجب في بادئ الأمر لذا واصلت قائلاً :

سأدخل إن لم تجيبي–

صرخت منفجرةً بالبكاء : إياك !

_إذاً أخبريني ماذا هناك !

كان صوت نفسها مسموعاً، أخذت شهيقاً طويلاً اتبعته بزفيرٍ متعب ثم قالت : سأخبرك بعد قليل ...

_خذي وقتكِ وأريحي نفسك، سأكون هنا .

قاطعه الطبيب قائلاً : على الرغم من شخصيتك، تبدو حساساً لمشاعر الآخرين...

(هومويس مستاءً قليلاً) : يكفي سخريةً مني أيها الطبيب، أنا إنسانٌ بالنهاية... لقد كانت تضحك دائماً وبشدة... لم أكن لأستغرب أن يبكي من

مثل حالها لكن ليس أمام ذات الشخص الذي يضحك أمامه... لذلك كانت بمثابة الصدمة...

لذا شعرت أنني سأكون أنانياً لو لم أكترث...

هذا صحيح، بإمكانك أن تكمل

رن هاتف هومويس والذي اعتذر ثم أجاب، وفور إجابته انقلبت ملامحه مبديةً انزعاجه... على ما بدا كان الاتصال من عائلته وفور إغلاقه للخط اعتذر بشدةٍ وغادر العيادة .

أشعل الطبيب سيجارةً جديدة ثم ارتدى سترته وأمر لينا بإغلاق عيادته ثم عاد لمنزله حيث اعتاد الطبيب عدم استقبال أي حالةٍ إلى أن ينتهي من علاج سابقتها.

عدت إلى منزلي (الطبيب) ثم قمت بتحضير قهوتي ووقفت أحدق إلى حبات المطر التي تطرق نافذتي الزجاجية.... هل أستجيب ؟ هل أفتح ؟ ألن أتبلل ؟ أو بصيغة مختلفة... ماذا سيحدث إن تبللت ؟ على ذكر ذلك ...

الشعور بين قبل وبعد حدثٍ معين شعورٌ مقيت ... ماذا سيحدث إن عانقت المطر ؟ سيُخيل لي أنه لن يصيبني أي مكروه أو إذا كنت سيء الحظ قد يصيبني الزكام، وبالطبع لن يكون ذلك المرض المؤذي لي .

بعد ذلك ربما سأقول حينما أصبح مريضاً أحتضن الفراش ... ماذا سيحدث لو لم أفتح النافذة ؟ هذا نحن... نفتقر إلى الإدراك في الوقت المناسب ... عيبنا أننا لا ندرك عدم إدراكنا لنستطيع استدراك أمرٍ كان بالإمكان استدراكه

في المرة الأخيرة التي تبللت مع زخات المطر بقيت طريح الفراش عدة أيام، لم أكن قادراً على تناول أي شيء سوى الشاي الاخضر الساخن الذي يجعل معدتي تتملص من ذلك الألم حتى يزول مفعوله السريع... إن اشتد الألم علي كثيراً كنت أتناول اي شيء حامضٍ للغاية... إنها قاعدة تعلمتها أثناء عبثي في الحياة ومن الجيد أنها كانت تعمل على المعدة... أعتقد إن صح القول، فإن للمشاعر تركيزاً متفاوت... على سبيل المثال شعورك بالخوف سيمحي شعورك بالألم ولو لفترةٍ وجيزة حتى تشعر أنك آمن... كان ذلك ناجحاً حينما استخدمته مع معدتي التي تناست ألمها حينما استقبلت طعماً حامضاً للغاية...

أنا أثرثر كثيراً أليس كذلك ؟ اعلم... في النهاية، فقط هنا أستطيع أن أكون ثرثاراً... حينما أكون وحيداً فقط ...

شمس الصباح محت آثار العاصفة المطرية التي لم يبقى منها سوى عبقها الذي اختلط مع حجارة الطرقات... استيقظت متأخراً على غير عادتي ثم انطلقت نحو عيادتي دون أن أشرب قهوتي الصباحية...

وصلت إلى باب العيادة في التاسعة إلا دقيقتين، وقفت لاهثاً حتى مضت تلكما الدقيقتين ثم ولجت إلى الداخل.

بعد تحضيري لقهوتي وارتشافي الرشفة الأولى منها دخل عليّ هومويس وألقى التحية قائلاً :

_طاب صباحك أيها الطبيب ...

_أهلا يا هومويس، كيف حالك اليوم ؟

_لا بأس أيها الطبيب

_ماذا تود أن تشرب ؟

_قهوة من فضلك، بلا سكر

_اعتقد أن قولك كلمة "قهوة" تكفي لأعرف أنها بلا سكر، فمن يحتاج السكر سيقول ذلك لأنه يود أن يضيف مكوناً ليس رئيسياً.

_أعلم ذلك، لكنني وددت تخليصك من سؤالي إذا ما كنت أرغب بوضع السكر لقهوتي، ربما أنت أيضاً لا تحب إسراف كلماتك...

_الطبيب مبتسماً : تفضل قهوتك إذاً .

جلست على الكرسي الخاص بي ثم أخذت أنظر إلى هومويس الذي يبادلني النظرات ثم قلت : نسيت إرخاء حاجبيك ...

وضع يده خلف رأسه ثم قال : أعتذر حقاً، أرجو أنك لم تسئ فهمي ...

_أتخشى أن أسيء فهمك ؟

_بصراحة؟ لا، لا أبالي لكن أيضاً أعتقد أنني يجب أن أحافظ على علاقتي مع الناس الذين أحتاجهم حتى لو اضطررت للتمثيل ..

_ماذا عن الآخرين ؟

_مبالاتي لهم تُحصر بحسب أهميتهم لدي ..

_ماذا لو كان شخصاً عزيزاً أساء فهمك ؟

_أعتقد أنها ستكون مشكلة...

_لماذا ؟

لأنني أملك عادةً سيئةً أيها الطبيب ....

_ماهي ؟

حينما يُساء فهمي أنا لا ألوم الطرف الآخر... بل ألوم نفسي لعدم وضوحها، لحماسها، لعدم تقديرها لكلماتها... ثم بعد ذلك أزدريها ...ثم

_ثم ماذا ؟

_أعاقبها بأن تكبت ما تود قوله بعد الآن... وبذلك يبقى سوء الفهم للطرف الآخر وأبقى أن في مشكلةٍ مع نفسي ...

_هل حدث لك ذلك من قبل ؟

_مرةً واحدة ...

أخذت أزفر قائلاً : حسناً، دعنا من ذلك الان ولنعد إلى قصتك

_لا مانع لدي

_حسناً إذاً، كلي آذانٌ صاغية

_توقف صوت بكاءها وانتشر الصمت في الأجواء دون أن يصدر كلانا أي صوت..

بعد وقتٍ قليل، انتهى دوامي لذلك اليوم لكنني بقيت جالساً في مكتبي احتسي أكواب قهوتي اللامتناهية إلى أن قاطعت بنغم صوتها الصمت وقالت بنبرةٍ أوحت كم أنها مخذولة : هل رحلت ؟

_لا... ليس قبل أن أعرف سبب بكاءك ...

_بإمكانك الرحيل، انا بخيرٍ الآن..

اجبتها بكل هدوء وانا اضع سيجارتي في فمي : لن أرحل

صرخت بخليطٍ من الصرامة والتعب : ،لمَ !!

_لقد أخبرتك، ليس قبل أن أعرف سبب بكاءك

_ولماذا سأخبرك بسبب بكائي !؟

_ربما لأنني أود أن أسخر منكِ كي تشعرين أن سبب بكاءك سخيف ولا يستحق البكاء ثم تعودين إلى المنزل مسرورةً وتنسين الأمر برمته

_هل أنت جاد ؟

_بالطبع لا

عم الصمت أرجاء المكان عدة دقائق ثم قالت بصوتها الذي بدأ متأثراً:

_لقد.... لقد تمت خطوبتي قبل عدة أسابيع من شخصٍ أحببته من كل قلبي، كان يبادلني المشاعر نفسها... أو ربما كان يقول كذلك ...

_ألم تقولي أنه لا شأن لي ؟

صمتت قليلاً كأنها تلقت صدمةً ما ثم قالت : هذا صحيح، أعتذر

ثم بدأت بالبكاء من جديد

(الطبيب وقد وضع يده على وجهه) : أكان لكلامك داعٍ حقاً ؟!

_بالطبع لا، لكنني كنت دائماً هكذا، شخصٌ أحمق مع من يحبهم

_وهل كنت تحبها أساساً في ذلك الوقت ؟

_لا لكن صوت بكاء شخصٍ يسعى دائماً لنشر الفكاهة حولي جعلني اشعر بأن من مسؤوليتي إصلاح الأمر، ثم كان هناك أمرٌ آخر، حينما أخبرتها بتلك الكلمات توقعت أن تغضب أو ما إلى ذلك، كان ذلك طوق النجاة لتدعني وشأني وتبتعد عني نهائياً، لكن ردة فعلها كانت غير طبيعية أبداً

كان آخر ما قد أتوقعه هو أن تبكي، لذلك بدأت تتبادر لذهني فكرة أن تلك الفتاة غير مألوفةٍ... ربما .

_حسناً حسناً، ماذا حدث بعد ذلك ؟

كدت أضرب نفسي الحمقاء لما تسببت به، أعدت الحديث إليها بخجلٍ :

_حسناً أنا أمزح وحسب...

واصلت بكاءها في حين أصبح تفكيري منصباً على أن مزحتي السخيفة هي السبب في ذلك البكاء لذلك رميت سيجارتي التي انتهت تحت قدمي وقلت بتردد : هل تسمحين لي بالدخول ؟

_لا ! لا داعي لذلك

ساد الصمت عدة دقائق ثم قالت بصوتٍ متقطعٍ أرهقه البكاء :

ألن ترحل ؟

_لا.

_لقد انتهى دوامك منذ فترة ...

_ لا أحد ينتظرني في المنزل، لذلك لا أمانع البقاء حتى تنتهي قيمة السبب الذي يجعلك تذرفين الدموع ...

_لن تنتهي !

_لنقرر ذلك بعد أن تخبريني بالقصة ..

_ولماذا أنت مهتمٌ بمعرفة القصة

_بإمكانكِ إخباري بالقصة دون تفاصيل إن أردتِ .

ردت بنبرةٍ غاضبة : لن أفعل !

ساد الصمت عدة دقائق قبل أن تعود لتقول :

لطالما كنت لطيفة معه... حتى لو اضطررت للتمثيل، حتى لو كان وضعي المزاجي أو النفسي لا يسمح... كنت دائماً متشاركةً معه في أوقات السعادة وأخشى عليه أن أشاركه أوقات حزني ...

لقد خُذلت... كان يراسل فتاةً أخرى بينما أنا غارقةٌ في وهمٍ يخبرني أنه يحبني ...

لكنني مجرد حمقاء، حتى بعد أن عرفت الحقيقة... حاولت إصلاح الأمور، لقد كان مصراً أنها مجرد صديقة وحسب، مع أنه لا شيء يوحي أن الأمر كذلك، لكنني حاولت !

_كيف حاولتِ ؟

_أخبرته أنني أسامحه، لكن عليه التوقف عن مراسلتها وقطع علاقته بها

كان جوابه بكل بساطة : تسامحيني ؟!! أخبرتكِ أنها مجرد صديقة ! ثم لماذا سأقطع علاقتي بصديقتي ؟ لأجل أفكارك الرجعية وشكوكك التي ليس لها مبرر ؟

_يبدو أنه جيدٌ في قلب الأمور لصالحه... إذاً ؟ ماذا فعلتِ بعد ذلك ؟

قلت له على الرغم من معرفتي السابقة لإجابته : إذاً من ستختار ؟

أجاب بكل برودٍ وكأنه ينتظر تلك اللحظة وذاك السؤال: لو كانت هي مكانك لما سألتني هذا السؤال.

في تلك اللحظة أدركت الأمر وأدركت قيمتي أيضاً، رميت خاتم خطوبتنا في وجهه... الخاتم الذي احتضن مشاعري في كل ليلة... رميته ثم أدرت

ظهري له وسرت... وسرت أيضاً دموعي التي أعجز عن كتمها حتى اللحظة.

_ذلك ليس بغريب... من الواضح أنكِ شخصٌ عاطفيٌ للغاية ...

المهم، هل تسمحين لي بإدلاء رأيي ؟

(الطبيب) : أعتقد أنها لم تجب

_هذا صحيح... لذلك أتبعت كلامي بسؤالها "هل تحبينه" أو بصيغة أكثر دقة، هل كنتِ تحبينه ؟

أجابت بنبرةٍ هادئة : بلى

أعلم أنك في وضع لا يسعك فيه الاصغاء لأحد، حتى وإن أصغيتِ فربما لن تفهمي بشكلٍ كامل لكنني على الرغم من ذلك سأتكلم ...

ربما سيبدو كلامي غريباً، لكن كون إجابتك بلى، فهذا يعني أنكِ تحبين نفسك ...

قد لا ندرك ذلك لكننا نحب الأشخاص لأننا نحب أنفسنا ونرغب في إرضاءها ...

إياكِ والتوهم أن هناك علاقةً دون حاجة متبادلة... حتى وإن لم يكن هنالك حاجة فالعلاقة هي إرضاءٌ لأنفسنا البشرية... هل تستطيعين الارتباط بمن

لا تستسيغه نفسكِ ؟ هل تستطيعين الارتباط بشخصٍ تمقتينه ، قد تكون الإجابة بلى في حالةٍ خاصة، على سبيل المثال أنه جميل جداً أو غنيٌ جداً، وبذلك عدنا إلى الحاجة المتبادلة... اي أنك في جميع الأحوال تحتاجين الدافع لتحبي شخصاً ما، والدافع الشائع في أنفسنا الطبيعية هو الراحة والرضا الذي نراه في أنفسنا حين وجودنا مع ذلك الشخص ....

لذلك... أنتِ لا تحبينه، بل تحبين شعورك بالرضا لنفسك لأنكِ معه... ولأنكِ تحبين نفسك وتسعين لإرضائها فلا يسعكِ أن تحبي شخصاً تسبب بالأذى لكِ ...

أعلم أن كلامي غريب... لكن ما إن فكرتي فيه ستجدين قيمة نفسك... وبعد ذلك لن تندمي على فراق من يود فراقكِ .

(الطبيب) : يبدو أن لديك موهبةٌ كبيرةٌ في التواصل مع الآخرين وتغيير آراءهم

_على العكس أفتقر لمهارة المحادثة ولا أجيد التواصل جيداً ، إلا إياها... شعور الراحة الذي ينتابني معها كان كفيلاً بجعلي المحادث الأفضل... منذ المرة الأولى لم أشعر بأي حاجزٍ يوقفني عن الكلام ... لم أعرف لمَ، لكن محادثتها كانت سهلةً بالنسبة لي ...

(الطبيب) : امممم، حسناً، ماذا حدث بعد ذلك ؟

_نطقت بالكلمة الأخيرة وانا أفتح الباب وأتوجه للخارج

(الطبيب) : أي أن كلماتك كانت نهاية الحديث...

_وبداية القصة .

كانت نيتي من المساعدة ليست شخصيةً أبداً... طالما أن ذلك لا يتعبني فأنا لا أمانع تقديم أي مساعدة لأي أحد... لقد أساءت فهم الأمر وبدأت تبادر بتطوير علاقتنا لنصبح أصدقاء... لم أكن أريد لذلك أن يحدث، لكنني أيضاً لم أرد تخييب ظنها وزيادة الحمل عليها لذلك مارست معها أسلوب الإهمال التدريجي، حاولت أن أجعل حديثي معها يقتصر على السؤال والجواب، وايضاً كنت لا أجيب عن أي أسئلة شخصية توجهها لي ...

(الطبيب) : وكيف كانت النتائج ...

_إنها لا تستسلم، تبتسم دائماً، تبادر دائماً، تعذرك دائماً، تساندك دائماً...

كانت الطيبة التي تتمتع بها تثير غثياني أحياناً

(الطبيب) : لمَ ؟

كانت لطيفةً أكثر من اللازم لذا بطبيعتي لم أكن أحب هؤلاء الناس العفويين بشدة فكنت قد أقنعت نفسي أنه لا يوجد شخصٌ عفوي وطيب إلى تلك الدرجة وربما هو مجرد متصنع لذلك لم تختلف معاملتي معهم عن

الآخرين بل ربما كنت أود الابتعاد عن أولئك الناس كي لا أُصدم بحقيقتهم المخفية يوماً ما بعد فوات الاوان .

فرغم تلك الطيبة التي تظهرها إلا أنني كنت أخشى أن تكون في الواقع مؤدية لدورها بإتقان بينما شخصيتها تختلف كلياً عما تظهر .

(الطبيب) : إتهامٌ كبيرٌ كهذا لابد من أن يكون وراءه سبب

_بلى، بالتأكيد أنت تعرف أننا نرى الحقيقة من منظورنا الذي وإن كان صحيحاً فهو لا يرينا إلا جزءاً من الحقيقة، لذلك حينما كنت أقيس الأمر على نفسي لم أستطع التصديق بوجود أشخاص طيبين لتلك الدرجة

(الطبيب) : حسناً هذا صحيح نوعاً ما فالإنسان يحاول أن يجعل من نفسه مقياساً دائماً لتصرفات الآخرين وتأثيرها، ولكن عدم قدرتنا على القيام بنفس التصرفات لا يعني أن الآخرين لا يستطيعون

_أعلم، لكنني لم أكن أعلم في ذلك الوقت، وربما ذلك أهم أسباب ندمي... افتقاري للإدراك في الوقت المناسب... أحياناً، أن تصل متأخراً ليس خيراً لك من ألا تصل..

(الطبيب) : دائماً هناك استثناءات لكلِ قاعدة... وللأسف هذا ينطبق على ما تقوله أيضاً... وصولك متأخراً قد لا يفيدك أحياناً.

_للأسف...

_بعد ذلك أصبحت علاقتنا صداقةً من طرفٍ واحد... هي تحاول جاهدةً أن تبني وأنا أبحث عن طريقةٍ غير مباشرةٍ لأهدم كل شيء... لكن كل ذلك اختفى في أحد الأيام ...

(الطبيب ضاحكاً) : أحب أن أصل لجزئية أحد الأيام، ذاك اليوم الذي يشكل منحنىً في قصة أحدهم، أحب ذلك ...

_أقلت أحدهم ؟

_أنت تعلم إذاً ... ثم أضاف مبتسماً : دعنا من ذاك وأكمل

_حسناً ها أنا ذا ... أخذ نفساً ثم قال :

_لا أعلم ما إذا كنت أحب ذلك اليوم وذلك الفارق أو لا ... أستطيع القول أنه جميلٌ جداً... لكن لأنه جميل أخشى أن أفقده يوماً، أخشى أن يتلاشى ويتلاشى معه شغفي تجاه كل شيء...

(الطبيب) : أتفهمك تماماً، السير مع اليأس لن يمنحك سعادة الشخص الذي يسير مع الأمل ... لكن على الأقل سيجّبُ عنك الخيبة في النهاية... أي أنك لا تهتم بتحقيق أفضل النتائج ... بل ما يهم هو تجنب أسوء النتائج ...

_هذا صحيح ... للأسف .

قبل ذلك اليوم كنت أرى أنها شخص مليء بالسلبيات... لا تكف عن الحديث، تضحك على ما لا يجب أن تضحك عليه... والأسوء من ذلك كان سخريتها من الفتيات الأخريات... لم أستطع تحمل ذلك وطلبت منها التوقف، صوتها ذاك الذي كان يقاطع صوت الكآبة الذي يدور حول رأسي لم أكن أستسيغه...

(الطبيب) : أعتقد أن هذا طبيعي لبعض الأشخاص... أعتقد أن السؤال المطروح هنا هو ...

لماذا أنفسنا أنانية إلى هذا الحد ؟ ...لماذا نرى أنفسنا قبل الجميع ؟

بوضوحٍ اكبر حينما أكون كئيباً ينتابني شعور الصدمة حيال أي شخصٍ فكاهيٍ أراه بل وأجده شخصاً سخيفاً فقط لأنني مطوقٌ بنيران الكآبة ..

بينما حينما أكون سعيداً فأجد أن الشخص الكئيب هو شخصٌ درامي، مضخم للأمور .

هل من الطبيعي حقاً أن أرى ان الصداع الذي ينتاب رأسي أهم من مئة شخصٍ تقتله ظروفٌ لم أمر بها من قبل ؟

والجواب هو نعم ... ذلك طبيعي لكن عليك أن تدرك أيضاً أن مشاعر الإنسان تختلف بحسب سنه واهتماماتهم وبيئته والكثير من الأشياء ...

أي أن ما تراه أنت تافهاً قد يكون شيئاً يعني الكثير للآخرين، لذلك عليك أن تبدي تقديراً أكبر لمشاعر الناس من حولك، ليس لأجلهم فقط بل لأجلك أيضا، فذلك سيساعدك في فهم الناس وتحسين علاقاتك بهم، لذلك عليك أن تحرص على ألا تجعلهم يكبتون مشاعرهم ويقيدون حريتهم أمامك خجلاً أو خوفاً من عدم تقديرك لها.

_كان يجب أن أعرف ذلك قبل الآن...

(الطبيب) : صدقني، بإمكاننا البدء من جديد... دائماً...

_لكل قاعدةٍ استثناءات أيها الطبيب...

ضحك الطبيب حينما هزمه هومويس بسلاحه... ثم تابع هومويس قائلاً:

_ربما في الحقيقة بدأ كل شيء قبل ذلك اليوم لكنه كان الضربة القاضية التي جعلتني اعيد تفكيري حول كل شيء... لطالما شعرت بمشاعر الآخرين من إيماءاتهم العفوية حينما أحادثهم ... لكنني دائماً كنت أستشعر من ملامحهم كم أنني شخصاً ممل... لكنها لم تشعرني كذلك، ولا حتى لمرةٍ واحدة... كل مرةٍ كنت بارداً فيها كانت هي بحيويتها تعوض النقص من جانبي لم أدرك ذلك إلا حينما قرأت مذكراتها...

(الطبيب) : إذاً فقد رأيت وجهها

_لا، كانت نبرة صوتها تحمل من الصدق ما يكفي وحسب .

ابتسم الطبيب مشيراً لهومويس بإكمال كلامه والذي بدوره قال :

كان ذلك بعد ثلاثة أشهر من لقائنا الأول، كنت مستلقياً فوق سريري الخشبي محدقاً نحو السقف المظلم أقضم أظافري...

وصلتني رسالةً عبر هاتفي منها... وددت لوهلةٍ أن أتجاهلها لكنها لم تكن مجرد رسالة عادية... كانت أطول من أن تظهر كاملةً عبر شاشة الإشعارات ...

فتحت هاتفي وبدأت أقرأ تلك الصفحة التي من الواضح أنها أُرسلت لي عن طريق الخطأ، كانت مذكراتٍ شخصية تخصها، بل تخصني ...

لقد عشت سبعاً وعشرين عاماً... لم يستطع خلالها أن يعرفني أحد... كنت أخفي نفسي حتى عن أقرب الناس إليّ... وجدت في تلك الصفحة حقائق عن نفسي، تصرفاتٍ أكررها، وجدت الأشياء التي أفكر بها حينما أقوم بشيء ما... لوهلةٍ ما كنت أتساءل... هل أجريت عمليةً ما وأخبرتها كل شيء عن نفسي تحت تأثير المخدر ؟

(الطبيب) : الأشخاص المهتمين يملكون انتباهاً لا يجابهه أحياناً حتى العباقرة ...

لكن ما أود معرفته هو الشعور الذي انتابك حينما أصبحت واضحاً لشخصٍ جعلك ترى نفسك أبله لأنك لم تكتشف قدراته .

_شعرت أنها الشخص الوحيد الذي بإمكاني أن أعرف منه الحقيقة خلف نفسي ..

ربما سأحب نفسي إن كانت تراها جيدة فرؤيتها كانت تفوق الوصف...

ربما سأقول في وجودها أنها محظوظةً بامتلاكها لي، وفي غيابها سأشتاق لمن جعلني أشعر بقيمتي تلك ... منذ تلك اللحظة، لقد استثنيتها على الجميع ...

لقد أصبحت متقبلاً لعلاقتي بها، بل أصبحت أنا من يريد أن نكون اصدقاء

بقيت انعزل لكن معها استثناء... بقيت لا أضحك لكن معها أفعل... بقيت قليل الكلام لكن ليس إياها، بل كنت كثير الكلام... كانت مستمعةً ممتازة بل تحب الاستماع ولا تمل... تناقشك مظهرةً اهتمامها لما تقوله وليس كآخرين دورهم في النقاش هو جعلك تصمت أو آخرين يحبون الجدال لا النقاش ...

(الطبيب) : ما الفرق ؟

_الفرق بين ماذا ؟

(الطبيب) : الجدال والنقاش

_وكأنك لا تعلم ؟

(الطبيب) : ربما

_ العديد من الناس حولنا يحبذون الجدال لا النقاش والفرق كبيرٌ جداً بين هاتين الكلمتين ...فهناك من يحاورك ليصل للحقيقة دون أن يهتم سواءٌ أكان الخاسر أم الرابح في ذلك النقاش ... وآخر متعصبٌ يريد أن يفرض عليك الحقيقة التي يؤمن بها دون أن يفهم أن النقاشات ربحٌ بجميع أحوالها... فحينما تخسر نقاشاً ستكون بالواقع ربحت حقيقةً لم تكن تدركها ...

(الطبيب) : سأسلك سؤالاً أود أن تجيبني عنه... لكن بصدق

_سأحاول ...

(الطبيب) : لماذا أتيت إليّ ؟

_لأنك طبيب

(الطبيب) : انا امنح الإجابة للسؤال الذي يدور في ذهن المريض... انت تملك السؤال والإجابة... هذا هو مرضك... انت مصاب بداء التفكير... لست مريضاً، إنما أنت تفكر في كل شيء... لذ سأواصل سؤالك، لماذا أتيت إليّ ؟

_حينما أتكلم لديك وأفرغ مخزون كلامي فأنت بالمقابل ستتقاضى مني مالاً مقابل ذلك ... انا هنا لأنني أود أن أدفع ثمناً لكلامي، أود أن أدفع مالاً، لا ندماً .

(الطبيب) : جوابٌ مقنعٌ بحق ... لكن لماذا أنا ؟

_لقد اختبرت عدداً لا بأس به قبلك من الأطباء، جميعهم يودون الكلام وتقديم الحلول، على عكسك تماماً..

(الطبيب) : لكن كلانا يعلم أن تلك الطريقة الصحيحة والمجدية

_لكن ليس بالنسبة لي، أنت هادئٌ للغاية... أعتقد أن هذه حاجتي

(الطبيب) : أتساءل حول ذلك... ربما هذا الهدوء ثمنٌ لشيء ما... لذلك على عكسك، قد لا أكون أحبه ...

_حتى ولو ... أعتقد أن القدرة على البقاء هادئاً شيء جميل ...

(الطبيب) : التقدم بسرعة مفرطة قد يسبب لك العجز عن التقدم مرة أخرى حينما تسقط... هل ستسمي هذا هدوءً ؟

صمت قليلاً ثم أجاب : بل إنه أقرب إلى نهاية الرغبة ...

(الطبيب) : كان الفوز في صالحي إذاً في هذه الجزئية

_ضاحكاً : حسناً حسناً، لا أمانع ذلك

ماذا عنك أيها الطبيب... هل لديك قصةٌ تتمنى إزالتها عن عاتقك ...؟

(الطبيب باسماً) : أعتقد أن كوني طبيباً نفسياً يستطيع أن يعالج الآخرين من البديهي أن يستطيع علاج نفسه، لذلك من المفروض ألا أمتلك قصة

_أهناك استثناءات هنا أيضاً ؟

ضحك الطبيب لوهلةً ثم أجاب : أو ربما كوني هنا لأنني لم أستطع التعافي

_ماذا تقصد ؟

(الطبيب) : الأقوياء لا يستطيعون السقوط... ليس لأجل أنفسهم بل يرون ذلك سخيفاً لأنهم هم من يستند إليهم الضعفاء من حولهم ... لذلك ربما عليّ أن أكون محاطاً بالضعفاء كي أكون قوياً ولا أنهار ...

نظر هومويس إلى الطبيب بابتسامة صغيرةٍ تعتلي وجهه ثم قال :

لقد أفحمتني... حقاً...

ثم أضاف : أشعر بقليلٍ من الحسد... ابتسامتك التي توحي بأنك تفهم كل حرفٍ أقوله... كلامك في الوقت المناسب ومحله المناسب... أعلم أنني لست بمكانة تبيح لي قول هذا لكنني سأقوله رغم ذلك :

أنت مميزٌ أيها الطبيب...

(الطبيب) : هل تود أن تكون مميزاً يا هومويس ؟

_لا

(الطبيب) : لماذا ؟

_لست مميزاً لكنني أدرك العبء الذي يجعل المميز يتمنى أن يكون عادياً بقدر ما يطمح العادي أن يكون مميزاً...

أخرج الطبيب سحابة الدخان الأخيرة من فمه ثم وضع علبه السجائر في جيبه قائلاً: دعنا ننتهي هنا لليوم يا هومويس ...

_حسناً

بقي هومويس جالساً مكانه يحدق للطبيب الذي يرتدي معطفه الجلدي حتى خاطبه الطبيب دون أن ينظر نحوه : اسأل سؤالك

_لماذا لا تستقبل أي مرضى آخرين ؟

(الطبيب) : أحبذ أن أمتلك مريضاً واحداً فقط كي يكون عقلي متفرغاً له تماماً

_أهذا هو التفاني ؟

(الطبيب) : لا أعلم، إنها فقط طريقتي ...

_هل جميعهم مصابون بالمرض نفسه ؟

(الطبيب) : هذا ما يقولونه

_ماهي الحقيقة إذاً ؟

_في الواقع، غالبيتهم لا، منهم من أحب عدة مرات، ومنهم من يبحث عن الحب فيجده ... لكن الحقيقة هي أننا لسنا نحن من نعثر على الحب، إنما الحب هو من يعثر علينا ... الحب أبعد من أن يستطيع البشر تقفيه، وأقرب من أن يستطيع البشر تجنبه ...

وأيضاً حينما يكون هناك كلمة "أول" فهذا يعني وجود ثانٍ وربما ثالث، الحب يأتي مرةً واحدة يا هومويس ... وحينما يأتي ستدرك أن كل تلك المشاعر التي شعرت بها من قبل ليس حباً كما كنت تظن ... الحب مرة وإلى الأبد .

طلب الطبيب من لينا إغلاق العيادة ثم رحل حاملاً حقيبته السوداء الخالية من أي شيء، كان الغرض منها فقط استعراضياً.

كان الجو غائماً لطيفاً على عكس اليوم السابق، لذلك كان للطبيب معرفةً سابقة أن أصدقاءه سيراسلونه للخروج مساءً والترويح عن أنفسهم .

وصل الطبيب إلى منزله ثم رمى بجسده على السرير، نظر إلى ساعته التي أشارت إلى الثالثة بعد الظهر، اعتدل ثم أخرج علبة السجائر وأشعل

واحدةً شارداً نحو مرآته : لقد أصبح شعري طويلاً للغاية، بل مظهري برمته أصبح غريباً، لا بأس

لا أملك من الرغبة ما يكفي لجعل مظهري ملفتاً لأحد، نفخ الدخان من فمه ليغطي وجهه ثم قال : في حلول الغد، سيحل اليوم الذي افترقنا فيه ...

لا شك أنني أشعر بالفراغ، لكنني أتساءل بعد مرور هذه الأيام، هل مازلت أحبها ؟

هل أحببتها من الأساس ؟ لو كان كذلك، ألا يجب أن يزيدني الفراق حباً ؟

لكن ذلك البرود في أعماقي لا يدل على ذلك أبداً... هل تعرضت للخداع من قبل مشاعري يا ترا أو أن مشاعري تغيرت إثر صدمة الخذلان ؟ كان بإمكاني ربما إصلاح الأمر لكنني لم أفعل، ربما خوفاً ربما خجلاً ربما وربما... لكن ؟ لو أحببتها بصدقٍ هل سأجعل أي سببٍ كهذا يقطع حبال وصل علاقتنا ؟

مازلت لا أدرك أي شيء... لكن الشيء الوحيد الذي أنا متيقنٌ منه الآن أنني لم أبادر للعودة لأنني لا أريد ذلك، على الرغم من أنني سأقبل لو بادرتِ أنتِ، وأخشى أن يكون دافعي للقبول هو الانتقام فحسب...

رمى بعلبة سجائره ثم دخل ليأخذ حماماً بارداً في ذلك الجو الأقرب للبرودة... كان ذلك سهلاً لمن يستطيع تخطي الزمن داخل عقله... حينما

يقول في نفسه أن ذلك الوقت سيمضي فهو قادرٌ على مجابهته لأنه أخبر نفسه أنه سيمضي وسيصبح ماضياً، حتى وإن كان مؤذياً فسيكون مفيداً... فالمجرم الذي احترق وجهه في حريق، ربما سيستطيع النجاة من الشرطة للأبد ...

خرج الطبيب من الحمام ثم جلس على السرير وكما كان يتوقع، وصلته رسالةً من أصدقاءه للخروج إلى مطعمٍ قريبٍ وتناول العشاء، وافق الطبيب على الدعوة ثم ارتدى وجهه البشوش ذو الابتسامة العريضة وانطلق رفقة داني الذي مرّ لاصطحابه بسيارته .

وصل الطبيب رفقة داني إلى وجهتهم المنشودة ليستقبلهم هناك صديقهم لاورو بحفاوة وبعض المعاتبة للطبيب المشغول عنهم والذي برر بدافعه المعتاد "عيادته" .

جلس الأصدقاء الثلاثة ثم نادى لاورو النادل لطلب العشاء، أنزل الطبيب كأس المياه بعد أن ارتوى ثم سأل : ألن ننتظر جوليان ؟

أجاب لاورو وهو يحدق لقائمة الأطعمة بين يديه : لقد حاولت معه كثيراً لكنه يبدو مكتئباً بشدة ولم يرضى حتى أن يخبرني السبب لذلك لم اشأ أن أثقل كاهل بأسئلتي وتركته يرتاح

_مكتئب ؟ وكيف شخصت ذلك ؟

(لاورو) : لقد أخبرني هو بذلك، لكن ليس بشكلٍ مباشر

أخرج الطبيب سيجارةً من علبة السجائر التي أدمنها وقام بإشعالها ثم قال بعد أن أخرج سحابته الدخانية الأولى :

الاكتئاب يا صديقي مرضٌ نفسيٌ خطير وغالباً ما تطول مدته ومن الصعب أيضاً البوح به لأحد...

(داني) : لماذا ؟

_لماذا ماذا ؟

(داني) : لماذا من الصعب أن تبوح بالاكتئاب ؟

_أولاً، فجميعنا نعلم أن الطريقة المعتادة لنقل مشاعرنا هي الكلمات... لكن هل هي كافيةٌ لذلك ؟

ما تسمعه وما تقرأه هو شيءٌ أنت تعلمه، لكن ليس بالضرورة أنك تدرك كل ما تعلمه ...

نظر لاورو إلى داني ثم نظر للطبيب وقال : تدرك أننا لم نفهم، أليس كذلك

_أعلم، لم أنهي كلامي أساساً...

أعطني يدك قليلاً...

مد لاورو يده دون تردد فإذا بالطبيب يقرصه ...سحب يده بسرعةٍ وانقلبت ملامحه لتبدي الانزعاج الذي شعر به ...

_ماذا حدث للتو ؟

(لاورو)بتجهم : ماذا حدث ؟

أحياناً معرفتنا للشيء لا تعني أننا ندركه حقاً، فأنت الآن شعرت بالألم أما أنا فأعلم أنك تألمت فقط، فمعرفتي أنك تألمت لا يعني أنني عرفت هذا الألم وشعرت به وهذا هو الفرق بين المعرفة والإدراك ...

التفاوت بين مشاعر الشخص المكتئب والشخص السليم كبير، لذلك قبل أن يخبرك الشخص المكتئب أنه كذلك سيضع في الحسبان فيما إذا كنت ستدرك ما يشعر به..

وبالتالي سيخشى أن يخبرك بذلك لأن عدم فهمك أو تقديرك لمشاعره في تلك الحالة قد يزيد من حاله سوءً، طبعاً هذا ليس السبب الوحيد لإخفاء الاكتئاب فهناك الكثير من الأسباب... ولكن ما اريد إيضاحه أنك غالباً لن تستطيع تمييز المكتئب من مكالمته فقط... قد يكون أسعد الناس أمامك، هو أكثرهم تعاسةً حينما يكون وحيداً–

وصل الطعام إلى المائدة وأنهى الحديث الذي كان يدور بين الطبيب وأصدقاءه الذين لا يبادلونه سوى الاستماع بصمت، ليس اهتماماً منهم بل

لأنهم ينتظرون منه التوقف عن الكلام وتلك هي الطريق الاقصر لذلك، فهم مدركين تماماً أن أي كلمةٍ تصدر منهم قد تكون باباً يقبع خلفه نقاشٌ آخر، على الرغم من أن تلك الكلمات التي كانت تصدر من فم الطبيب كانت ثمينة، لكنهم على عكس هومويس لم يكونوا على إدراك بذلك، ربما هذا الفارق ينبع من التجارب، لكن ورغم إدراكه لذلك إلا أنه كان يكمل كلامه كل مرة ...

بعد ساعاتٍ قضاها في الخارج، عاد الطبيب إلى منزله وقام بتغيير ملابسه ثم أوى إلى فراشه حتى صباح اليوم التالي.

وفي يومه التالي وصل الطبيب إلى عيادته كما المعتاد، جلس خلف مكتبه وأخذ يحتسي كوب قهوته رفقة سيجارته، لم يلبث كثيراً حتى طرقت لينا الباب لتخبره بوصول هومويس .

_صباح الخير أيها الطبيب

_صباح الخير

نادى الطبيب لينا لتجلب لهومويس كوباً من القهوة والتي لبت طلبه بسرعة ثم عاد لمخاطبة هومويس قائلاً :

_حسناً والآن، أين كنا يا هومويس ؟

_هل سنبدأ بهذه السرعة ؟

_ألدينا شيءٌ آخرٌ لفعله ؟

أخذ هومويس نفساً عميقاً ثم قال :

لقد فتحت الباب لاستقبالها في حياتي، لكن لم يسر كل شيء على ما يرام على الرغم من تقبلنا لبعضنا البعض إلا أننا كنا نملك الكثير من التفاوت في التفكير وحتى المشاعر_

_اسمح لي بأن أقاطعك قليلاً، لكن أخبرتني أنكم مجرد أصدقاء، إذاً ما الضير في التفاوت طالما أن علاقتكم هي صداقةٌ فحسب ؟

_نعم إنها صداقة، لكنها غريبةٌ نوعاً ما حيث أنها صديقتي الوحيدة وانا صديقها الوحيد، وأيضاً لا أعلم ما مفهوم الصداقة بالنسبة لها لكنها لم تكن تكف عن الكلام معي سواء في المكتب أو حتى عبر الهاتف لذلك أعتقد أن الصداقة لا تفي لوصف علاقتي بها ... كنا اقرب من ذلك

_غريبةٌ هذه الفتاة... وأنت أيضاً

_بل أعتقد أنها مميزة ...

على كلٍ لم يكن كل شيء يسير على ما يرام فقد كنا كثيراً ما يحمى بيننا الوطيس وكثيراً ما يحدث ألا نتحدث لفترةٍ بعد اختلافنا حول شيء ما ...

بصراحة، لم أكن أملك المبالاة التي تجعلني أعتذر للإصلاح بيننا، لذلك كان ذلك دورها في كل مرة، ومع ذلك كانت تقوم به بلا كللٍ أو ملل، لا أعلم ما الذي يدفعها بكل تلك الشدة للمحافظة على علاقاتها حتى لو كانت تؤذيها ...

_أخبرتك سابقاً يا هومويس، العلاقات تحمل منفعةً متبادلة دائماً وأبداً ...

_حسناً لا أعتقد أن ذلك خاطئ، لأنني كنت أساعدها حينما أستطيع وأيضاً لم أكن ابخل عليها بتصحيح تفكيرها ونصحها، لكنني لازلت غير مقتنعٍ أن تلك الأسباب تكفي ...

أخرج الطبيب سيجارةً أخرى وطلب من هومويس أن يكمل حديثه ليجيبه الآخر :

أنت مدمنٌ بشدة أيها الطبيب...

_إدماني للتدخين مضرٌ لي بكل تأكيد... لكن تركي له يحمل ضرراً أكبر لي من ضرر التدخين نفسه ...مسح هومويس على رأسه مبتسماً وقال : حسناً حسناً لقد فهمت... يبدو أنه حقاً هناك منفعةً متبادلة دائماً...

_أكمل اذاً

_في العاشر من مارس... كان اللقاء الأول

كنا نتبادل الحديث كما اعتدنا، باردٌ ذو شخصيةٍ مستفزة، مع شخصٍ متحمسٍ طيب، بصراحة لم أقصد استفزازها لأن ذلك سلوكي المعتاد، لا أنفك عن كوني بارداً وكسول المبادرة، ورغم تقبلها لي إلا أنها كانت تنتقدني وتتوعد بتغيري بينما أنا لا أبالي لكلامها ...

بدأ مسرى حديثنا بقولها :

_أتعلم يا هومويس ؟ البارحةً كنت في خطوبة صديقتي ... لقد كنت محور الحفلة، على الرغم من أن ذلك جعلني أشعر بالتوتر لكنني في الحقيقة كنت سعيدةً أنني جميلة ...

(الطبيب مقاطعاً هومويس) : هل من عادتها التباهي هكذا ؟

_لا أيها الطبيب، إنها حمقاء وحسب، إنها تفكر بصوتٍ عالٍ دائماً

ضحك الطبيب ثم أشار لهومويس بأن يكمل...

_أعتقد أن هذا غير منطقيٍ يا أماتا

_ما هو الغير منطقي ؟

_أن يعجب الجميل بمظهرك

_هل تقصد أنني أكذب ؟

_على الإطلاق، لكن رؤيتنا للجمال تختلف من فردٍ لآخر، قد يراكِ أحدهم جميلةً للغاية بينما يراكِ الآخر فتاةً عاديةً للغاية، وهذا المنطقي ليتقبل بعضنا الآخر، فلو امتلك جميعنا نفس المعايير ليصنف شيء ما على أنه جميل، فسينقم العالم إلى جميلٍ وقبيح، سيُمحى تقبلنا لبعضنا وسنرى أن هناك خمسون شاباً يحبون نفس الفتاة ويتجاهلون خمسين فتاةً أخرى....

(الطبيب) : أعتقد أنني عرفت كيف كان اللقاء الأول ...

_لم تبادلني بأي كلمة، كل ما فعلته أنها نزعت ذلك الستار ووقفت محدقةً إليّ ثم قالت : هل سبق وأن تلقيت صفعةً من فتاة ؟

(الطبيب مبتسماً) : توقعت شيئاً فيه حماساً أكبر، كأن تضربك بحقيبتها على رأسك وتسقطك أرضاً على أقل تقدير...

_هل أستحق ذلك ؟

(الطبيب مع ضحكةٍ صغيرةٍ رُسمت على محياه) : بصراحةٍ نعم، لم يكن لفلسفتك أي داعٍ، أخبرها أنها جميلةٌ وحسب

_إنها كذبةٌ واضحةٌ جداً أيها الطبيب فأنا لم أرى وجهها قط

(الطبيب) : حينما تتلقى المديح من شخصٍ تهتم لأمره ستبتسم وحسب... ستشعر بسعادةٍ عارمة دون أن تبالي إذا ما كان صحيحاً أو لا ..

_على كل حال أعتقد أن لفلسفتي الشكر، لأنني بسببها رأيت ذلك الوجه...

أخذ نفسا عميقاً ثم أضاف :

ذلك الوجه الدائري الأبيض، الذي يحمل عينين واسعتين بلونٍ عسليٍ كاشف...

وجهٌ طفوليٌ جميل يحمل شامةً جميلةً على جانبه الأيمن كانت تزين خدها الذي بدا محمراً من خجلها آنذاك ...

بقيت ثوانٍ صامتاً متأملاً فحسب... يبدو أن كل من كان في الحفل محقاً، إنها جميلة... جميلةٌ جداً، قلت تلك الكلمات بصوتٍ عالٍ دون أن أشعر... ازداد خجلها، وخجلي أيضاً ليعود كلاً منا إلى مكتبه ويعم السكون في المكان ...

بقي الوضع على حاله وخضع المكان للصمت حتى غادر كلانا... ودون أي كلام .

عدت إلى منزلي، دخلته برتمٍ بطيء، كدت أتعثر مراتٍ عديدة بسبب شرود ذهني وتفكيري بها... واصلت الشرود حتى دخلت غرفتي، ومكثت فوق مكتبي ...

بعد رؤيتي لجمالها تيقنت أنه لا سبب لاتخاذها شخصاً مثلي صديقاً أو رفيقاً أو أي شيء، شخصٌ لديه كل شيء لا حاجة له بشخصٍ يفتقر لكل شيء مثلي ...

(الطبيب مقاطعاً) : صدقني يا هومويس... لن تشعر بشيء لم تختبره من قبل...

أنت ترى نفسك من منظورك لا منظورها لذلك لا تستطيع أن تشعر بشعورها ...

_لا أعرف، حقاً لا أعرف... كل ما كان يراودني أنها تستحق أشخاصاً أفضل من حولها ومع أنني أدرك ذلك، كنت عاجزاً عن تحسين نفسي... كنت عاجزاً عن المضي قدماً، كنت أخشى أن أخيب وأسمع صوتاً داخلي يقاطع حزني ساخراً قائلاً "ألم أخبرك" ؟

(الطبيب) : أتفهمك تماماً يا صديقي، في النهاية ليس خاطئاً التفكير أن البقاء في المنتصف خيرٌ من الصعود للأعلى والسقوط للقاع... أي أن الأشياء السيئة قد تحجب عنك الأشياء الأسوء ...

_نعم... لذلك كنت مستغرباً، لم أجد أي تفسيراً يشفع صلتها بي... وكنت أخشى ما كان يسكن في بالي في ذلك الوقت... وقد حصل .

نظر هومويس إلى ساعته ثم إلى الطبيب، فبادله الطبيب بأن أخرج علبة سجائره وأومأ برأسه له كي يكمل

_في مرحلةٍ ما أصاب البرود علاقتنا... لم ألمها على ذلك، فقد كنت أستحق أن أُعامل بنفس الطريقة التي أعامل بها الآخرين، لذلك تقبلت الوضع وواصلت كما اعتدت لكنني بعد عدة أيامٍ اكتشفت أنها تمتلك صديقاً جديداً آخر ...

(الطبيب) : أين المشكلة ...

_أثناء جلوسي في المكتب، سألتني سؤالاً بينما كانت تحدث أحدهم عبر الهاتف...

لم أتردد في إجابتها كما اعتدت دائماً ، تكرر الأمر فانتابني الفضول وسألتها عن سبب سؤالها لي بينما تحمل الهاتف، كان جوابها أنها أيضاً تُسأل .

في تلك اللحظة جن جنوني، لا أعلم السبب حقاً وراء ذلك بالضبط لكنني شعرت أنني خلعت ثوبي البارد وأضرمت ناراً أحرقت بحيرتي بأكملها ...

تركت المكتب مع كلماتٍ قاسية مفادها أنني لست أداةً للتسلية ...

(الطبيب) : صارحني الوقول يا هومويس، هل كان سبب غصبك هو سلوكها أم إشارة الواقع أن اعتقادك كان صحيحاً بأنك مجرد تسليةٍ وحسب ؟

_لقد كان ذلك قاسياً لشخصٍ حذرٍ وغير مبادرٍ مثلي...

(الطبيب) : أكمل يا صديقي

_طلبت بأن يتم نقل مكتبي وقد تم تلبية ذلك بعد إلحاحٍ كبيرٍ مني، قطعت تواصلي بها وقيدت كل الوسائل التي قد تجمعنا سويةً ولو بكلمة، لا أخفيك، شعرت بالحرية آنذاك، شعرت وكأنني عدت لسابق عهدي، أستطيع أن أنام دون أن أخشى أن تتم أذيتي من أي أحد...

بقي الوضع على حاله أمداً طويلاً كانت قد بردت مشاعري كلياً خلاله .

كنت في مكتبي أقوم بعملي المعتاد، كان شريكي في المكتب شاباً اجتماعياً للغاية، لذلك كان لا ينفك عن دعوة أصدقاءه من الموظفين للجلوس معه في مكتبه وتبادل الأحاديث.

كانوا يتبادلون الأحاديث كما اعتادوا كل يوم، إلى حين أن دخل أحدهم وقبل أن يلقي تحيته عليهم قال : هل سمعتم آخر الأخبار ؟

نظر الجميع إليه إشارةٍ له بأن يخبرهم، ولا أخفيك أنني أيضاً تركت ما كنت أفعله وأصغيت إليه ليقول :

زميلتنا أماتا تعرضت إلى حادث سيرٍ البارحة..

لم أسمع بقية كلامه، حملت هاتفي وركضت خارج المكتب، بل خارج الشركة ثم عدت إليها ومررت إلى مكتبي السابق لأجده خالياً تعبث به أجندة الرياح كما تشاء.

حاولت الاتصال بها فإذا بها لا ترد، زاد قلقي ووقفت أحدق إلى هاتفي المحمول بين يدي وجسدي لا يتوقف لحظةً عن الارتعاش، لا أعرف من يجب أن اسأل ولمن يجب أن أتجه، لم أكن أعرف أي أحدٍ في الشركة من الأساس أستطيع سؤاله ...

بعد عدة دقائق، ومضت شاشة هاتفي، كانت رسالةً منها، كانت تقول "أنا بخير"

تركت لمشاعري الفرصة لترد على تلك الرسالة، وأعتقد أن الرد من مشاعري كان ملائماً وجميلاً لما أشعر به "لقد أنقذتني رسالتك" ...

شعرت بسرورٍ لم أختبره لفترة، ذهبت إلى المستشفى بوجهٍ خجولٍ ليس بمقدوره حتى إلقاء التحية، بينما هي ومنذ اللحظة الأولى كانت أماتا التي أعرفها ...

منذ تلك اللحظات، أدركت أن سبب انفعالي ليس تفكيري وليس تصرفها، بل لأنني لا أود أن أكون صديقها فقط .

عادت علاقتنا تلك التي أُفضل ألا تقبع تحت أي مسمىً وأصبحت أنا أعتاد أكثر وأتكلم أكثر حتى أنني أصبحت ألقي النكات بين الحين والآخر، أما هي فلا زالت تحتفظ بطباعها التي بدأت أعتادهم وأجدهم ليسوا بالسوء الذي وجدتهم به قبلاً .

(الطبيب) : أهو الحرمان ؟

_ماذا ؟

(الطبيب) : تقبلك لطباعها وتحولك لشخصٍ حيويٍ أكثر، هل سببه فراقكم لفترة ؟

_أعتقد أن تفسيري أغرب من ذلك، بل سبب ذلك هو عودة كل شيء إلى طبيعته حتى بعد الخلاف، ربما شعرت بالثقة أن تلك الفتاة لا تؤذي بل أولوياتها هي الحفاظ على علاقاتها بالآخرين حتى لو تعرضت للأذى منهم

إنها لا تنتظر الفرصة لإنهاء كل شيء بل تنتظر الفرصة لإصلاح كل شيء...

هذا ما جعلني أثق بها وأخرج الشخص الجيد المكبوت في أعماقي .

(الطبيب) : أود أن أخبرك شيئاً يا هومويس ...

_أسمعك أيها الطبيب

(الطبيب) : لقد قلت سابقاً أنها ليست غريبة، بل مميزة

_هذا صحيح ...

(الطبيب) : لأن الله يعلم ما في داخلك، ربما تستحق أن يكون بجانبك شخصٌ مميز يا صديقي ...

(هومويس مبتسماً) : أتعتقد ذلك أيها الطبيب ؟

أومأ الطبيب برأسه مؤكداً على كلماته، بينما تبدلت ابتسامة هومويس وبدأت مشاعره تنسكب من عينيه قائلاً : شكراً أيها الطبيب...

(الطبيب مبتسماً) : ألن تكمل لي

(هومويس وهو يمسح عينيه) : لكننا نتوقف يومياً في مثل هذا الوقت

_لا مشكلة لدي بالبقاء هنا حتى تنتهي الحكاية، ماذا عنك ؟

_يسعدني ذلك بالتأكيد

_أكمل إذاً ...

_بكل سرور ...

أمضينا فترةً طويلةً اعتدنا فيها التكلم يومياً دون ملل أو كلل، بدأت أشعر أن مشاعر كلينا تتغير، كان الحب واضحاً على كلينا إذا ما أمعنت النظر، لكننا أبينا البوح رغم ذلك ...

ربما كان السبب خلف ذلك هو خوفنا من ردة فعل الطرف الآخر أو ربما خوفنا من أن تُدمر علاقتنا التي عثرنا خلالها مواطن جمالٍ كثيرة في حياتنا كانت قد غابت عن أعيننا سابقاً، أي أن ما أوقف كلانا كان السبب نفسه ... الخوف من أن نندم .

في السابع عشر من شباط وفي تمام الساعة الثانية بعد الظهر، لن أنسى ذلك الوقت ما حييت... خرجت من منزلي صباحاً كما المعتاد، كانت ترتدي السماء ثوباً أسوداً تزينه الغيوم، أذكر أنني في ذلك اليوم استيقظت سعيداً دون أي سبب، لم أرى في الأحلام ما يفسر كوني سعيداً ولم يحصل لي في الليلة الماضية ما يجعلني سعيداً حتى الصباح، لكنني كنت كذلك دون سبب...

بدأت قطرات المطر سباقها لمعانقتي، كانت قطراتٌ باردة تبعث الانتعاش في كل مرةٍ تلامس رأسي الغير مختبئٍ منها .

وصلت مكتبي وبدأت عملي دون أن أجفف رأسي حتى، كيف أُبعد عن جسدي من بادر لاحتضانه ؟!

جلست أعمل ساعاتٍ وتلك الابتسامة لازلت مرسومة على وجهي، ولازلت أنا أجهل سبب وجودها، لكنني كنت مسروراً بوجودها ...

بعد وقتٍ من العمل توقفت بسبب انقطع التيار الكهربائي في الشركة إثر خللٍ مفاجئ في الساعة الثانية إلا بضع دقائق، لذلك اضطر الجميع إلى ترك أشغاله ريثما يتم إصلاح الخلل ومن بينهم أنا وهي أيضاً، وصلتني رسالةٌ منها ثم تحولت إلى مكالمة صوتية ربما لدفع الملل عن كلينا ريثما نعود للعمل ...

قالت بنبرةٍ مملوءة بالضجر :

_ما سبب الخلل يا ترا

_وما شأنكِ أنت بذلك

_أود العودة للعمل والتخلص منك فحسب

_لست أنا من أرسل إليكِ وبدأ التطفل

لتجيب مازحةً : أعلم أعلم، لطالما كنت أنا المزعجة وكثيرة الكلام

_صحيح

انقلبت نبرتها إلى الجدية وبدا عليها القليل من الانزعاج ثم أضافت :

وأنا سيئة في إيصال أفكاري ودائماً أتسبب بسوء الفهم

_صحيح

_أيضاً... انا صعبة المراس

_أعلم ...

_حمقاء ولست جميلة ...

_أتفق

قالت بنبرةٍ لا أستطيع القول سوى أنها خليطٌ بين الحزن والخيبة: وددت لو أنكرت هذا الجزء على الأقل–

_لكنني رغم ذلك، أحبك

صمتت لبضعة ثوانٍ ثم قالت بنبرةٍ متفاجئة: جدياً ؟!

نعم جدياً... انا أحبك يا أماتا

ثم أضفت، وداعاً سأغلق الخط ...

(الطبيب باسماً) : يا لك من جبان

_لم يكن موقفاً أُحسد عليه أيها الطبيب ...

_لا أتفق معك في ذلك، حسناً ماذا حدث بعد ذلك ؟

_أجابت بدورها قبل إغلاقي للخط :

_لحظة.... أنا أيضاً، رغم أنك أحمقٌ عنيد... باردٌ ومستفزٌ... غير مسؤولٍ وأناني، أحبك ...

(الطبيب مبتسماً) : لا أستطيع تصور شعورك حينما بادرت متخطياً خوفك وحصلت على ما تود ...

_حتى انا أعجز عن وصفه... كل ما أستطيع قوله أنني لم أنم تلك الليلة، شعرت بالاكتفاء من كل شيء

ضحك الطبيب ثم قال : لكن ماذا قصدت بأنك أناني ؟

ابتسم هوموِيس مجيباً :

لقد كنت دائماً معجمها الفلسفي الأول، وقد كانت تؤمن بأفكاري لذا كان وصفها لي بالأناني نابعٌ من وصفي لنفسي بذلك...

(الطبيب) : وكيف ذلك ؟

_لقد تبادلنا ذات مرةٍ حديثاً عن الأنانية وكان سؤالها لي "ما هي أقصى مراحل الأنانية ؟

كان ذلك فرصةً أخرى لي لأمارس فلسفتي لشخصٍ يحب الاستماع حقاً لي ويؤمن بكلامي ... أجبتها قائلاً :

لو سألتك أيهما تفضلين... موت أكثر شخصٍ تحبينه أو موتك ؟

في الواقع جوابك لن يشكل فرقاً ففي الحالتين إجابتك تبرهن على كمية الأنانية التي تمتلكينها داخلك.

ربما من الأناني جداً أن تختار الشخص الذي تحبه ..

لكنني أرى أن أقصى مراحل الأنانية هي أن يتمنى المرء موته قبل أحبائه ربما تجدين كلامي غريباً جداً لكن حينما تسألين شخصاً قد خاض تلك التجربة، بإمكانك حينها سؤاله عما إذا كان هناك أشد من الموت... أراهنك أنه سيقول فقد الأحبة .

لذلك أرى أن أقصى مراحل الأنانية هو إيثار الموت على تجرع شعور الفقدان ..

فربما تدفعك انانيتك لتمني الموت قبل عزيزٍ عليك لمعرفتك بقسوة شعور الفقدان في نفسك .

(الطبيب باسماً) : أي أن وصفك بالأنانية برأيكما هو صفةٌ ثابتةٌ في كل شخص وازديادها فيك يعني ذلك مديحاً بالنسبة لك وهي استغلت كلمةً مسيئةً لكونك تعتبرها إطراء ؟

_تماماً كذلك

_تعجبني قناعتها بكلامك لدرجة أن تقيسه على الأشياء من حولكم وأنت موجود، غالب الناس في مجتمعنا حتى لو أدركوا الحقيقة من شخصٍ آخر

سيشعرون بالخجل وربما يسلكون الطريق الخاطئ فقط لشعورهم بالخجل من اعترافهم برأيك

_أخبرتك، إنها مميزة

_يبدو كذلك حقاً... إذاً ؟ ماذا حدث بعد ذلك ؟

عن الأشياء الجديرة بالذكر فلا بد أن أذكر ما قالته حينما سألتها لماذا لم تخبرني أنها أحبتني ...

كان ذلك في الليلة نفسها حينما بادرت قائلاً :

_أماتا... أعلم أنه سؤالٌ غريب لكن لا ضير فيه لأنني برمتي غريبٌ أيضاً... لماذا أحببِ شخصاً مثلي؟

لتجيبني قائلة:

_لقد نمت بذرة الحب في قلبي منذ رؤيتي لشخصٍ عاجزٍ عن المبادرة لكنه يحاول رغم ذلك أن يساعدني، منذ تلك اللحظة التي بدأت فيها بتصحيح أفكاري من دروسٍ دفعت ثمنها أنت لوحدك... لقد أحببتك منذ زمن، معاملتك السيئة لي كانت دافعاً أكبر لأحبك، قد يبدو علي الغباء لكنني رأيت أن ذلك الوجه البارد كان أقصى ما لديك، كنت تتجنب أن تؤذى وتتجنب أن تؤذي، أنت تدفع للناس القليل، لأنك تملك القليل فحسب...

أنت مميزٌ يا هومويس ولطيفٌ أيضاً، أنت الإنسان الافضل الذي مرّ بحياتي، لذلك أحبك .

مضت الأيام بتفاصيل عادية لا تستحق الذكر، لم تختلف علاقتنا كثيراً عن السابق لأنها أساساً لم تكن تنضوي تحت مسمى الصداقة، هي تمارس فكاهتها وأنا أمارس فلسفتي وكلانا يتوعد الآخر بتركه إلى الأبد في كل يومٍ مرتين على الأقل ..

(الطبيب ضاحكاً) : أهو برنامجٌ غذائيٌ تتبعونه ؟

_حتى لو امتلكت انا النية في مغادرتها، كانت كلمتها التي لطالما أسمعها، لن أدعك وشأنك، شئت أم أبيت لن أدعك أبداً ...

(الطبيب باسماً) : أعانك الله

_إنها جملتها أيها الطبيب، كانت تضيفها بعد قولها ذلك

تفاعل الطبيب مع هومويس بإطلاقه ضحكةً كانت تعبر عن مدى استمتاعه بحديث هومويس، لقد أدرك الطبيب حقاً ما يقصد هومويس بأن تلك الفتاة مميزة... ذلك هو الوصف الوحيد الذي ينطبق على هؤلاء الأشخاص ... هذا النوع من الأشخاص يملكون مبدأً رائعاً...

أحبك في أحوالك الجيدة، لكنني أعشقك في أحوالك السيئة...

أحبك في قوتك... لكنني أعشقك في ضعفك ...

أي أنه كل ما كانت الأسباب التي تدفعهم لحبك أقل... كلما أحبوك أكثر .

_بعد عدة أسابيع، تم إرسالي في رحلة عملٍ إلى مدينةٍ مجاورة مع بعض الموظفين الذكور الآخرين وكان من المقرر بقاؤنا هناك ما يزيد عن الأسبوع...

مضت الأيام الثلاثة الأولى وكانت ممتعةٌ قليلاً على عكس ما كنت أتوقع، لكنني لا أخفي أنني كنت مشتاقاً لرؤية وجهها بعد استيقاظي في كل صباح، كنا نتواصل بعد نهاية عمل كلينا في المساء، واستمر ذلك حتى مساء اليوم الثالث وحسب .

بعد نهاية عملي في مساء اليوم الرابع فتحت هاتفي باحثاً عن الرسالة التي ترسلها أماتا لي في كل مساء، حينما تراجع محادثاتنا سترى أنها دائماً هي من تبدأ الحديث لذلك كان من غير الطبيعي أن أكون أنا المرسل الأول لا المتلقي .

أرسلت لها عدة رسائل ثم ذهبت لتناول العشاء رفقة الموظفين الآخرين، وفور انتهائي عدت للغرفة وفتحت هاتفي لأجد سجله خاوٍ دون أي رسائل، بدأ القلق يتسرب لقلبي إلا أنني كنت أحاول جاهداً في عقلي العثور على أعذارٍ لعدم رؤيتها لرسائلي .

لا أخفي كم أنني كنت متوتراً وأشعر بقليلٍ من الخوف لكن ذلك لم يكن شيئاً أمام ما شعرته حينما قام المسؤول عن الموظفين باجتماعٍ مستعجل، شعرت بطريقةٍ ما أن للأمر علاقةٌ بها، دخلت إلى الغرفة وكنت آخر الواصلين بسبب وهن أقدامي من الخوف... كان ذلك واضحاً على ملامحي تماماً، وكأنني أعلم مسبقاً ما سيقول ...

(الطبيب) : إذاً ؟ ما الذي قاله ؟

_فور إغلاق الباب، طلب الهدوء ثم ألقى التحية وأخبرنا أننا يجب أن ننهي كل شيء خلال اليوم، وما لا نستطيع إنهاؤه سنؤجله، المهم أن رحلتنا يجب أن تُقطع اليوم

(الطبيب) : يبدو أن شكوكك وربطك للأحداث خاب في تلك المرة

_شعرت براحةٍ كبيرة لا أستطيع وصفها، لم يخبرني أحدٌ أنها بخير، لكن لم يخبرني أحدٌ العكس، كان ذلك دافعاً كافياً لي لأشعر بالراحة، إضافةً إلى ذلك كان إخبارنا أننا سنعود في نفس اليوم أيضاً يحمل التفاؤل لي لأجل لقائي بها أخيراً ومعرفة سبب انشغالها منها بشكلٍ مباشر...

لكن الاجتماع لم ينتهي كذلك، بعد أن طلب المسؤول منا الهدوء ثانيةً، أضاف :

غار على الشركة سطوٌ مسلحٌ مجهول الهوية... قُتل تسعةُ أشخاص من الموظفين وأصيب الكثير...

لم أستوعب الأمر في البداية وبقيت محدقاً له دون أدنى ردة فعل... بعد لحظاتٍ بدأ الاستيعاب يزعزع صفو عقلي المتغابي آنذاك ... ابتلعت ريقي ثم بشكلٍ لا إرادي استبعدت اسوء الاحتمالات وقلت في قرارة نفسي أنها من المصابين... كنت أود أن يكون هذا أسوء الاحتمالات... إلا أن المسؤول كان لديه أسماء الضحايا...

في نفسي كنت أود أن أسمع وألا أسمع، كنت أود أن أعرف أنها بخير، لكن لم أرد أن أسمع عكس ذلك ... قام المسؤول بإلقاء الأسماء بسرعةٍ دون أن يأبه لمشاعر من يهمه الأمر ...

كانت هي بينهم، بين القتلى.....

عم الصمت أرجاء العيادة، كان الطبيب يحدق بصمتٍ نحو عينيّ هومويس الذي يبادله الصمت والنظر... انهمرت دمعةٌ من عين الطبيب الذي لم يدرك حتى شعر بها تسير على وجنته، سرعان ما مسحها وقال مخاطباً هومويس :

باستطاعتك الإكمال أليس كذلك ؟

_نعم أيها الطبيب... أستطيع...

(الطبيب مخفياً عينيه خلف أكمام قميصه) : أكمل إذاً

فور أن تلقيت الخبر، سقطت مغشياً عليّ، ما أعرفه بعد ذلك أنه تم نقلي إلى المستشفى وبقيت هناك حوالي أسبوع، كنت أرفض تناول الطعام مما زاد من وضعي سوءً، لا أتذكر مرور ليلةً واحدة دون أن تصبح وسادتي مليئةً بالدموع

كل ما كان يتبادر لذهني هو سؤالٌ واحد... كيف سأواصل ؟

كيف سأواصل وقد تركني شخصٌ أحبه ويحبني... أرغب به ويرغب بي... أريده ويريدني... كيف سأخضع لمشيئة القدر التي يرفضها كلانا ...

لقد فقدت الشخص الذي أشعر معه أن لوجودي قيمة، أشعر أنني إنسانٌ جيد ...

شخصٌ يمنحني من الأهمية ما يجعلني أشعر لوهلةٍ أنني أحسده لامتلاكه لي...

خرجت من المستشفى بعد أسبوع، ليس لتحسن حالي بل لأن الأطباء أدركوا أنني لن أتحسن، لم أعد إلى تلك الشركة قط، أصبحت أكرهها بمن فيها وما فيها.

(الطبيب) : ألم تكتشف هوية من أقدم على تلك الجريمة ؟

_صدقني أيها الطبيب... لا أعرف، منذ ذلك الوقت وأنا لم أذهب إلى هناك، أصبح هاتفي مجرد آلةٍ لحفظ ذكرياتنا فحسب، انعزلت مع نفسي مجدداً، لكنني لم أعد أكلم جدران غرفتي كما اعتدت، بل كان كل وقتي مملوءً مع صورها، لم نكن نكف عن الحديث والضحك أحياناً على خلافاتنا السخيفة...

في كل مرةٍ كنت أتكلم ولا تبادلني الكلام، كنت أتألم أيها الطبيب... تألمت جداً مع كل دقيقة تمضي ...

كانت 60 ثانية اكثر من كونها دقيقة .

(الطبيب) : ألم تقل سابقاً أن عقلك يستطيع تخطي الحدث حينما تقول في نفسك أن هذا الوقت سيمضي ؟ إذاً لماذا لا تقنع نفسك أن الحياة ستعوضك وذلك الوقت سيمضي ؟

_ لأنني لم أكن أرغب في تخطي أي شيء...رددت دائماً في داخلي أنني لن أعود كما كنت ابداً... لن أعود حياً على الاطلاق ..ربما أملك جوارح لكن داخلي كان ممزق بشكل كلي ... ثم أيها الطبيب، حينما اخترت نجمتي كان القمر موجوداً في نفس السماء لكنني ورغم ذلك اخترت نجماً أعلم أنه قد اختفى منذ سنين عديدة وأن ما أراه هو ماضيه الجميل، لكنه مع ذلك جذبني...

صمت قليلاً مِحدقاً لعيني الطبيب ثم أضاف بنبرةٍ خافتة:

هناك أشياء لا تُعوض حتى بما هو أثمن منها أيها الطبيب

لم يجب الطبيب على أيٍ من كلماته بل استمرت دموعه بالانهمار ببطء دون أن يشعر ودون أن يصدر أي صوت بينما يكمل هومويس حديثه قائلاً:

ما دمرني أنني لم أكن أؤمن ان شخص بارداً مثلي قد يملك نقطة ضعف...

لكنني كنت أملك ما هو أقسى من ذلك ..كانت نقطة إبادتي وليست اضعافي

كان السبب في ذلك عدم إدراكي لها...

(الطبيب) : أي أن حبك الشديد لها جعلك تندم على معرفتها ؟

_لقد أسأت فهمي أيها الطبيب... صدقني لو استطعت العودة إلى الماضي سأختار نفس الطريق... لكنني في ظل ارتياده سأجعل من كل تلك التفاصيل الصغيرة ذكريات سعيدة ،لن أفوت لحظةً معها كنت أستطيع أن أجعلها ذكرى جميلةً تُحفر في أعماقي، سأستغلها بأكملها ... تلك اللحظات التي كنت أظن أنها يجب أن تمر دون أن أتذكرها ... يجب أن تمر وحسب ببساطة... سأختار نفس الطريق ولكنني سأصنع ذكرياتٍ ترسم ابتسامة لا إرادية على محياي في ظل خيبة النهاية .

(الطبيب متصنعاً الاستغراب) : هل ستختار طريقاً تعلم كم من الألم يحمل في نـهايته؟

_لكنني أعلم كم من السعادة يحمل لي قبل أن أصل إلى نـهايته... إنـها مميزةً أيها الطبيب، لحظةٌ سعيدةٌ معها توازي كفة الألم الذي سأشعر به طوال حياتي ...

(الطبيب) : أنت غريبٌ جداً، لكنه ليس ذماً

_أنت أيضاً غريبٌ أيها الطبيب، بل ربما أغرب مني... وأقوى

أخذ نفساً عميقاً ثم أردف :

إذاً ؟ هل انتهت قصتك يا هومويس ؟

_لا زال هناك الكثير أيها الطبيب... لازال هناك ما يزيد عن اثني عشرة سنةً لم أقصها

_أي أن قصتك أكبر منك يا صديقي ...

_نعم، لذلك سأترك لك الباقي وسأرحل الآن...

_قبل أن ترحل يا صديقي... لماذا أنت هنا يا هومويس ؟

_مبتسماً: باختصار ؟ لأنك طبيب

_ليس هذا السبب

_إذاً لأنني مريض

_ماذا عن سببٍ إضافي، لقد قلت أنك أتيت إلي لأنك تود ألا تدفع ندماً ثمن كلامك... أي أن فقط سبب مجيئك هو لتفريغ ما بجوفك من كلام... إذاً لماذا لم تستمر مع الأطباء الأربعة السابقين ؟

_أخبرتك، إنهم لا يجيدون الاستماع

_هل تظن أن ذلك سينطلي علي حقاً ؟

أخذ نفساً عميقاً ثم قال مبتسماً : لأنك أنا...

نظر الطبيب النفسي السابق... أو بعبارةٍ أخرى الرجل العجوز هومويس إلى المرآة التي طلب سابقاً وجودها في غرفته في المستشفى الذي مكث في فراشه طيلة تلك الأشهر ثم قال ونظرته الناعسة تعتلي وجهه الذي سلب المرض ملامحه:

كفاك كذباً يا هومويس فأنت لن ترحل مطلقاً... أنت لست سوى نسيج من هلوسات فقط هلوساتٍ أنتجها في كل مرةٍ تكاد تفتك بي وحدتي وتسحبني في أعماقها... لذلك لن تستطيع تركي أبداً، لن تستطيع الرحيل فأنت موجود في عقلي دائماً، في أعماقي... أنت مرضي، بل شفائي وصديقي الوحيد ... لكن يا صديقي كلانا يعلم، أن لكل بدايةٍ نهايةً حتماً لكن قبل ذلك أود إخبارك يا هومويس أنني لا أزدريك، بل أحبك .

شعر الطبيب هومويس بالدوار قبل أن ينظر إلى باب الغرفة الذي يُفتح ببطء مصدراً صوتاً كالصفير والذي دخلت منه سيدةٌ بنفس عمره تقريباً، أجزم أنه لو امتلك القوة وقتها لصرخ ... لم يكن شعوراً يستطيع هومويس أن يصفه، كان أشبه بأن أحدهم قد سحبه من الهاوية في اللحظات الأخيرة...

وقفت بباب الغرفة بعينين دامعتين قابلتهم ابتسامةٌ تشير إلى السرور من هومويس الذي قال :

_لقد تأخرتِ، تأخرتِ كثيراً...

_لكنني عدت–

_لكنني كنت أنتظرك، أعلم أنكِ لا تملكين القسوة لتركي وحيداً في دنيا كئيبةٍ كهذه.

وقبل أن تجيبه أضاف دون أن يترك لها أي فرصةٍ للكلام :

أتعلمين يا أماتا... لا أعلم عن ماهية شعوري الحقيقي في السابق ... لكن كل ما أعرفه الآن...

انا أحبك .. احب غضبك سريع الزوال... أحب شكلك الذي اشتقت لرؤيته بغير الصور... أحب تقلباتك .. أحب صوتك .. أحب

تصرفاتك ... فقط أنا أحبك... أحبك يا أماتا

أجابته مبتسمةً والدموع في عينيها : لقد أخبرتني بذلك سابقاً

_أعلم لكنني الآن أحبك أكثر، لقد أحببتك بشدةٍ في السابق، لكن بعد أن فقدتك أدركت أن حتى حبي الشديد كان سطحياً لما شعرت به من حبٍ حينما فقدتك ...

_ماذا إذاً عن حبك السابق ؟

_ألا زلتِ تغارين يا عزيزتي ؟

فوالله إني وإن كنت أهواها فإني بكِ أهيم، إنني لا أحبكِ فحسب...

إنما أحب الأماكن التي كانت تجمعنا... أحب خلافاتنا... أحب أحاديثنا... أحب الطريق الذي كانت نهايته هي لقائي بكِ بعد صحوتي من نومي كل يوم...

أحبكِ حينما تكونين قريبةً مني، بل وأعشقك حينما لا تكونين كذلك... لذا يا عزيزتي أود إخبارِكِ أنني.... على الأغلب، سأحبكِ للأبد

نظرت إليه بابتسامتها الوردية ثم قالت بنبرةٍ خجولة :

_على الأغلب، أنا سأفعل أيضاً...

اقتربت منه بخطواتٍ هادئةٍ كانت تتوسع ابتسامته مع كل خطوة .

وصلت إليه، أخيراً وبعد سنين طويلةً، ها هي تتلاقى خطوط حبهم من جديد... هاهو يثبت لنفسه مجدداً أنها مميزة، أنها حقاً لن تتركه خلفها .

رفع هومويس جسده الثقيل من فراشه ثم قام إليها واحتضنها باكياً دون أن يدري أهي دموع السعادة لعودتها أو دموع الحزن لما انقضى من عمره الكئيب بعيداً عنها... بعد ذلك، حررها من بين يديّه رغماً عن مشاعره ثم أخذ يمسح دموعه لكي يرى وجهها ذاك الذي اشتاق إليه بوضوح... آنذاك.....

آنذاك، وحينما فتح عيناه من جديد، لم يجدها... وجد نفسه فوق سريره ممسكاً بهاتفه باكياً متأملاً صورتها وحسب .

أعاد هومويس النظر إلى مرآته والدموع في عينيه ثم قال باسماً متحسراً:

في النهاية لم تكن تلك النهاية السعيدة موجودةً أيها الطبيب... كانت نسجاً من خيالٍ صنعته متناسياً نفسي، متناسياً عالمي ومن حولي... كانت نهاية قصة أطمح إليها ولا أعثر عليها إلا في الأمسيات التي تجمعني مع وحدتي في غرفةٍ مظلمة .

و على الرغم من أنه يعلم أنه لن يفتحهم من جديد... اغمض هومويس عيناه مبتسماً معلناً مغادرته لذلك العالم الذي لطالما قاسى من خيباته .

ستحب حتى تكره... وتكره حتى تحب...

كل ذلك لأجل أن تفهم أن حقيقة الأشياء لا تظهر في البداية .

وطبعاً لا تنسى... هناك وإلى الأبد دائماً استثناءات.

تمت .

عبد الناصر سيو